الدور السياسي والاجتماعي للسيدة زبيدة زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد

م.د.عائدة محمد عبيد *

تاريخ التقديم: ٢٠١٢/١٢/٢ تاريخ القبول: ٢٠١٣/١/٢

اسمها ولقبها ونسبها:

قبل التطرق إلى الدور السياسي والاجتماعي للسيدة زبيدة كان لابد من التعريف بها:

هي زبيدة بنت جعفر بن أبي المنصور عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب عم الرسول محمد (ﷺ) فهي من سادات قريش[١] وتسمى أم العزيز[٢]،

* قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

(١) أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة: د.ت)، ٧٠/٢؛ عماد الدين ابو الفداء إسماعيل القرشي، ابن كثير، البداية والنهاية، مطبعة السعادة (مصر: د.ت)، ٢٧١/١٠؛ محمد بن قاسم بن محمد النويري الاسكندراني، كتاب الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق: عزيز سوريال عطية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط١، (حيدرآباد: ١٩٧٣م)، ٣٥١/٥؛ عبد الرحمن المصطاوي، أعلام النساء، دار المعرفة، ط١، (بيروت: ٢٠٠٢م)، ١١٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣١.

وامة الواحد[٣]، وسكينة[٤]، وآمنـــة[٥]، وأم الفــضل[٦]، وأم محمـــد[٧]. وأطلقت عليها أغلب المصادر (أم جعفر) [٨].

(٣) مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، مكتبة المثنى، ط١، (بغــداد: د.ت)، ٣٢٠/٣؛ أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله القلقشندي، مآثر الاناقة في معـــالم الخلافـــة، تحقيق: عبد الستار احمد فرج، مطبعة حكومة الكويت (الكويت: ١٩٦٤م)، ٢٠٣/١.

(٤) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، تصحيح: محمد أمـــين الخـــانجي الحلبي، مطبعة السعادة، ط١، (مصر: ١٣٢٤هـــ)، ١٥٦.

(٥) ياسين خيرالله الخطيب الموصلي العمري، مهذب الروضة الفيحاء في تـــواريخ النـــساء، تحقيق: رجاء محمود السامرائي، دار الجمهورية (بغداد: ١٩٦٦م)، ٢١٦.

(٦) أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي المكي المالكي الفاسي، العقـــد الثمـــين فـــي تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمود محمد الطناحي، مطبعة السنة المحمديـــة، (القـــاهرة: ١٩٦٩م)، ٢٣٦/٨.

(٧) أبو محمد عبدالله بن أسعد اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبـــر مـــن حوادث الزمان، مطبعة دائرة المعارف النظامية، ط١، (حيدرآباد: ١٣٣٨هـــ)، ٦٣/٢.

(٨) أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري، ابن قتيبة، المعارف، صححه وعلق عليه محمد إســـماعيل عبدالله الصاوي، المطبعة الإسلامية، ط١، (مصر: ١٩٣٤م)، ١٦٥؛ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفـــضل إبـــراهيم، دار المعـــارف، ط٣، (القاهرة: د.ت)، ٣٥٩/٨؛ أبو محمد علي بن احمد بن سعيد الأندلسي ابن حزم، جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق: إحسان عباس وناصر الدين الأسد، دار المعـــارف، (مـــصر: د.ت)، ٣٧٠؛ محمد بن علي بن محمد، ابن العمراني، الانباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاســـم السامرائي، (لايدن: ١٩٧٣م)، ٨٩؛ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن البغدادي ابن الجوزي، أحكام النساء، مطابع سجل العرب، (القاهرة: ١٩٨٤م)، ١٤٨؛ عبد الرحمن قينتـــو الاربلـــي، خلاصة الذهب المسبوك، تصحيح: مكي السيد جاسم، مكتبة المثنـــى، (بغـــداد: د.ت)، ١٠٧؛ شمس الدين محمد أبو احمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنـــؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، (بيروت: ١٩٨٢م)، ٢٤١/١٠.

ولقبت (بزبيدة) من جدها المنصور لحبه لها واعجابه بجمالها وبياض بشرتها، فكان يرقصها في طفولتها ويقول لها "انت زبدة وانت زبيدة"[٩] وبقي هذا الاسم ملازماً لها حتى وفاتها. وكانت وافرة الجمال والسحر[١٠].

ولادتها:

ولدت السيدة زبيدة سنة (١٤٥هـ/٧٦٤م) في قرية من قرى العراق تسمى حديثة دجلة وتسمى أيضا حديثة الموصل لقربها من الموصل باتجاه الجنوب على الضفة اليمنى من النهر في قصر حرب[١١].

(٩) أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي، الديارات، تحقيق: كوركيس عواد، مكتبة المثنى، ط٢، (بغداد: د.ت)، ١٥٧؛ أبو بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد منذ تأسيسها حتى سنة ٤٦٣هـ، المكتبة السلفية (المدينة المنورة: د.ت)، ٤٣٣/١٤؛ ابن الجوزي، أحكام النساء، ١٤٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٧٠/٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٧١/١٠.

(١٠) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٧١/١٠؛ الاسكندراني، الالمام، ٣٥٢/٥.

(١١) أبو زكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم الأزدي، تاريخ الموصل، تحقيق: علي حبيبة، دار التحرير للطبع والنشر، (القاهرة: ١٩٦٧)، ١٩٤؛ عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح: محمد يوسف الدقاق، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٨٧م)، ١٧٦/٥؛ وأشار بعض الباحثين إلى أنها ولدت سنة (١٤٩هـ/٧٦٨م) ينظر: شاكر مصطفى، دولة بني العباس، وكالة المطبوعات، ط١، (الكويت: ١٩٧٣م)، ٣٩٨/١؛ عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، مطبعة دار الكتب، (بيروت: ١٩٥٦م)، ١٥٠/١؛ وقيل: إنها ولدت بعد سنة (١٤٥هـ) بقليل جداً، مصطفى جواد، سيدات البلاط العباسي، دار الكشاف للنشر والطباعة، (بيروت: ١٩٥٠م)، ٤٥.

صفاتها:

كانت السيدة زبيدة ذات دين وترغب في عمل البر وحب الخير(١٢) متينة الخلق وافرة الحشمة و التقوى، وجعلت بيتها مكاناً لحفظ القرآن الكريم، وكان لديها مئة جارية يحفظن القرآن الكريم ويقمن بتدريسه، ولكثرة قراءته كان يسمع في قصرها ليلاً دوياً كدوي النحل من قراءتهم له(١٣) وهذا خير دليل على تقواها والتزامها بأمور الدين الإسلامي والتزامها الخلقي حتى قيل عنها "وماتت زبيدة وهي أعظم نساء عصرها ديناً وأصلاً وجمالاً وصيانة ومعروفاً"(١٤) وكانت محبة للفقراء والمساكين وتتفقد أحوالهم(١٥)، وتكرمهم. وقال الشاعر مروان بن أبي حفصة في حقها.

رجحت زبيدة والنساء شوائل   والله أرجح بالتقى ميزانها(١٦)

---

(١٢) أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة السلفية، (بيروت: د.ت)، ٣١٧/٤؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤٣٣/١٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٧٠/٢.

(١٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٧٠/٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٤١/١٠؛ الاسكندراني، الالمام، ٣٥٢/٥.

(١٤) جمال الدين أبو المحاسن يوسف الاتابكي ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، (القاهرة: د.ت)، ٢١٣/٢.

(١٥) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤٣٣/١٤.

(١٦) إبراهيم بن محمد البيهقي، المحاسن والمساوئ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، (القاهرة: د.ت)، ١٥٣/٢.

واتصفت السيدة زبيدة بالذكاء والفطنة والحنكة، وهذا ما يتضح من خلال ما جرى من نقاش بينها وبين الرشيد حول نزاهة عمارة بن حمزة[١٧] فقالت زبيدة "إن الأقدام الثابتة تزل عن مواطئها عند روائح المال، فادع به وهب له سبحتي هذه فان ردها عرفنا نزاهته" فوافق الرشيد وخلا به في أمر مهم، ثم أتبعه السبحة فوضعها عمارة بين يديه بعد ان شكر الرشيد لتقديره وبره به، ولما قام تركها مكانها، فقالت السيدة زبيدة، قد نسيها، فأرسلتها مع خادم لها ليعطيها لعمارة، فرجع الخادم قائلاً لها ان عمارة وهبها لي، فاعطته السيدة زبيدة الف دينار وأخذتها منه[١٨] يبدو أن هذه السبحة كانت غالية الثمن ونادرة فأرادت أن تمتحن عمارة بها للتأكد من نزاهته. أو أنها تود الاحتفاظ بها مما جعلها تستردها من الخادم بشرائها لها.

زواجها:

كان الرشيد محباً لزبيدة، وكانت الخيزران[١٩] والدته ترقب تحركاته وشغفه بابنة عمه زبيدة، فشجعته لتحقيق رغبته في الزواج منها، وكانت

---

(١٧) عمارة بن حمزة بن ميمون من ولد عكرمة مولى ابن عباس، وهو من الكتاب المشهورين، ولذلك كانت له مكانة لدى المنصور والمهدي، فرفعا قدره وجعلاه واليا على البصرة وفارس واليمامة والبحرين، ينظر: الزركلي، الأعلام، ٥/٣٦-٣٧.

(١٨) أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي البيروني، كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، دائرة المعارف العثمانية، (حيدرآباد: ١٣٥٥هـ)، ١٥٦.

(١٩) الخيزران: زوج المهدي العباسي، وأم أبنيه الهادي والرشيد، مكلة حازمة، متفقهة، يمانية الأصل، أخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي، وكانت من جواري المهدي فاعتقها وتزوجها... وتوفيت في بغداد، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٨/١٢١؛ الزركلي، الأعلام، ٢/٣٧٥-٣٧٦.

الخيزران تميل إلى زبيدة وتحسن إليها، وتحقق هذا الزواج، إذ عقد عليها سنة (١٦٤هـ/٧٨١م) [٢٠] وتزوجت سنة (١٦٥هـ/٧٨٢م)[٢١].

وأقيمت حفلة الزواج في دار محمد بن سليمان[٢٢] [٢٣]، وقد اهتم الخليفة المهدي اهتماماً كبيراً بمراسيم هذا الزواج والاحتفال به، ووزع الأموال والهدايا على الحضور، وقد وصفت هذه المناسبة بأنه لا مثيل لها في الإسلام[٢٤].

(٢٠) أبو الفضائل محمد بن علي الحموي، التاريخ المنصوري وتلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، نشر: بطرس غريا زينيونج، دار النشر للآداب الشرقية، (موسكو: ١٩٦٠م)، ٩٤.

(٢١) أبو يوسف يعقوب بن سفيان البسوي، المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، (د.م: ١٩٨١م)، ١٥٣/١؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣٥٩/٨؛ أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي، كتاب الديارات، تحقيق: كوركيس عواد، مكتبة المثنى، ط١، (بغداد: د.ت)، ١٥٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٥٥/٥؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٧٠/٢.

(٢٢) أبو عبدالله محمد بن سليمان بن علي العباسي، ولد بالحميمة من أرض البلقاء، تولى إمارة البصرة أيام المهدي، وكان والياً على البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان والأحواز، وفارس في سنة ١٦٠هـ/٧٧٧م، وعزل سنة ١٦٤هـ/٧٨٧م ثم أعيد من قبل الرشيد سنة ١٧٢هـ/٧٨٩م وأخته العباسة، وبقي في البصرة حتى وفاته، ينظر: صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت رنيتر، دار فرانزستايز للنشر (فيسباون: ١٩٦١م)، ١٢٧/٣؛ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني، لسان الميزان، مؤسسة الاعلمي، ط٢، (بيروت: ١٩٧١م)، ١٨٨.

(٢٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣٥٩/٨؛ أبو الحسين أحمد بن الزبير، الذخائر والتحف، تحقيق: محمد حميد الله، (الكويت: ١٩٥٩م)، ٩٢.

(٢٤) الشابشتي، الديارات، ١٥٧؛ ابن الزبير، الذخائر والتحف، ٩٢.

واهتمت زبيدة بمظهرها اهتماماً كبيراً وارتدت الحلي والجواهر بكمية كبيرة مما جعلها غير قادرة على المشي بسبب ثقلها[٢٥]، وألقى عليها ليلة زفافها البدنة[٢٦] التي لا تقدر بثمن وكانت مرصعة بالدر والياقوت الأحمر[٢٧].

وكان الرشيد يحب زوجه زبيدة حباً جماً، ونتيجة لحبه لها انه لما عزم أخوه الهادي على خلعه من ولاية العهد سنة (١٧٠هـ/٧٨٧م) والمبايعة لابنه جعفر وهو صغير[٢٨]، قبل الرشيد ذلك الأمر، وقال "إذا أنزلت علي الهنيء والمرئ[٢٩] وخلوت بابنة عمي فما أريد شيئا"[٣٠] إذ لم يهتم بمنصب الخلافة مقابل العيش مع زبيدة، كونه كان في حداثة سنه فالخلافة هنا لا تعني له شيئا، ولكنها رواية تحتاج إلى وقفة لاسيما وأن الرشيد فيما بعد أصبح خليفة الدولة العباسية.

ورزقت السيدة زبيدة بولدها (محمد) لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال سنة (١٧٠هـ/٧٨٧م) [٣١].

---

(٢٥) الشابشتي، الديارات، ١٥٦؛ الجومرد، هارون الرشيد، ١/١٠١-١٠٢.

(٢٦) البدنة: الجبة الصغيرة تشبيها بالدرع، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم الأفريقي المصري، ابن منظور، لسان العرب، اعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، (بيروت: د.ت)، ١/١٧٧.

(٢٧) الشابشتي، الديارات، ١٥٦.

(٢٨) المسعودي، مروج الذهب، ٣/٣٤٢-٣٤٣.

(٢٩) الهنيء والمرئ: نهران بازاء الرقة يجريان من الفرات، يسقيان عدة بساتين، حفرهما هشام بن عبد الملك وأحدث عليهما واسطة الرقة. صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار احياء الكتب العربية، (بيروت: ١٩٥٤)، ٣/١٤٦٦؛ شهاب الدين أبي عبدالله، ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، (بيروت: ١٩٥٧)، ٥/٤١٩.

(٣٠) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ١٦٩-١٧٠.

(٣١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٨/٢٣٣.

وفاتها:

تعددت الروايات حول وفاة السيدة زبيدة، فقد أشارت أغلب المصادر إلى أن وفاتها كانت سنة (٢١٦هـ/٨٣١م) في بغداد[٣٢]، في حين أشار بعضهم الآخر إلى أن وفاتها سنة (٢١٥هـ/٨٣٠م) [٣٣].

دورها السياسي:

جاء الإسلام فأنصف المرأة الإنصاف كله، وأزال عنها ما لحق بها من ظلم، وحررها من العبودية، وعاملها معاملة إنسانية وأعلى منزلتها، وأعطاها حقوقها كاملة، ودافع عن حريتها وكرامتها، فأعطيت الحق في الحياة والميراث والتملك والتعلم والاشتراك في الحياة السياسية والاجتماعية، ولم يفرق القرآن الكريم بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات والعمل الصالح قال تعالى " **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** "[٣٤]، وقال تعالى " **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** "[٣٥]،

(٣٢) أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، تقديم وتعليق: محمد صادق بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، (النجف: ١٩٧٤م)، ٢٠٦/٣؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣٥٩/٨؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤٣٤/١٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٤٩٦/٥؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٧٠/٢؛ إسماعيل بن علي بن محمد أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط١، (القاهرة: د.ت)، ٣٠/٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٤١/١٠؛ اليافعي، مرآة الجنان، ٦٣/٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٧١/١٠.

(٣٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢١٣/٢.

(٣٤) سورة النساء، الآية ١٢٤.

(٣٥) سورة النحل، الآية ٢٧.

وقوله جل شأنه وتباركت أسماؤه " **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ** "[٣٦] وهناك الآيات القرآنية الكريمة العديدة التي تعطي للمرأة حقها ومكانتها اللائقة بها فاشتركت المرأة مع الرجل بكل ما بوسعها وطاقتها في الغزوات، وعالجت الجرحى، وضمدت جراحهم، وقدمت لهم الطعام والشراب.

ولم نجد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ما يحرم المرأة من حق سياسي أو يمنعها من مساهمة سياسية أو اجتماعية، وأن أغلب الآيات القرآنية تخاطب الإنسان عموماً رجلاً وامرأة على حد سواء. فإقامة الدين وإرساء قواعد الدولة العربية الإسلامية من مهام الرجل والمرأة. لقد منح الإسلام حقوقاً لم تمنحها الأديان والأقوام الأخرى قبل الإسلام وهكذا كانت المرأة في العصر العباسي الذي هو محور دراستنا.

عند الحديث عن دور السيدة زبيدة في سياسة الدولة العباسية في عصرها الأول نجد صعوبة في تحديد أفعال سياسية معينة كان فيها تدخلٌ واضحٌ في سياسة الدولة، ولكن من خلال الاطلاع على المصادر والمراجع نجد هناك إشارات مقتضبة إلا أنها ليست أفعالا سياسية محددة يمكن الاتفاق عليها بالتدخل الواضح في المجال السياسي، ولكن قد تكون شكلاً من الأشكال ذات مردود على سير الأحداث السياسية في الدولة العباسية، وكان من الصعب كتابة سرد تاريخي لدورها في سياسة الدولة، وقد تمت الإشارة إلى ما ورد في المصادر والمراجع محاولين اكتشاف تأثير سياسي من عدمه.

---

(٣٦) سورة آل عمران، الآية ١٩٥.

وقد شاركت السيدة زبيدة في بعض المواقف السياسية في الوقت المناسب، فقد ظهرت في تلك الفترة ظاهرة التمازج الحضاري والسياسي بين العرب وغيرهم ومنهم البرامكة(٣٧).

كانت العلاقة بين السيدة زبيدة والبرامكة علاقة غير ودية بسبب تصرفاتهم المناوئة للدولة العباسية، فقد كانت تعلم جيداً بنياتهم العدوانية والشواهد على ذلك كثيرة منها أن يحيى البرمكي(٣٨) كان يبخل في النفقة عليها، وشكته السيدة زبيدة للرشيد، فعاتبه على ذلك، فأجابه يحيى "أمتهم أنا في حرمك وتدبير قصرك عندك؟ قال: لا، فقال لا تقبل قولها علي واستمر يحيى بالإساءة إلى زبيدة"(٣٩). ولا يمكن القول أن هذا موقف شخصي، بل هو موقف سياسي مناوئ للدولة العباسية، كون السيدة زبيدة هي زوجة الخليفة.

واستأثر البرامكة بالأموال وصرفها دون استشارة الرشيد حتى وصل بهم الحد أنه عندما كان الرشيد يطلب اليسير من المال لا يصله فغلبوه وشاركوه

---

(٣٧) البرامكة: ينتسب البرامكة إلى أهالي بلخ، وبلخ إحدى مدن خراسان العظمى، أحمد بن واضح اليعقوبي، كتاب البلدان، المطبعة الحيدرية، (النجف: ١٩٥٧م)، ٥٠. وكلمة برمك في اللغة السنكريتية تعني الصدارة أو ذا الرئاسة العليا، ينظر: محمد يوسف الهندي، بدء العلاقات العلمية بين الهند والعرب، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٠، مج١٢، ج١، ١٨.

(٣٨) يحيى البرمكي: يحيى بن خالد بن برمك أبو الفضل (١٢٠-١٩٠هـ/٧٣٨-٧٨٥م)، سيد بني برمك، وهو مؤدب الرشيد ومعلمه ومربيه، رضع الرشيد من زوج يحيى مع ابنها الفضل فكان يدعوه يا أبي، وعندما تولى الرشيد الخلافة قلده أمره ودفع إليه خاتمه، فبدأ يعلو شأنه واستمر إلى أن نُكب البرامكة، فقبض الرشيد عليه وسجنه في الرقة حتى وفاته. الزركلي، الأعلام، ٩/١٧٥.

(٣٩) المسعودي، مروج الذهب، ٣/٣٨٦؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١/٢٩٧؛ اليافعي، مرآة الجنان، ١/٤٠٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٠/١٨٩.

في سلطانه ولم يكن له تصرف معهم لتصريف أمور ملكه(٤٠)، وهذا ما أكده الرشيد بنفسه بقوله: "استبد يحيى بالأمور دوني فالخلافة على الحقيقة له وليس لي منها إلا اسمها"(٤١)، فتصدى لهم وكان ممهداً لهذا الأمر من مدة طويلة(٤٢)، إلا أنه كان يتحين الفرصة المناسبة فتخلص منهم وذلك عام (١٨٧هـ/٨٠٢م)، فقتل جعفراً وحبس يحيى والفضل(٤٣)، وصودرت أملاكهم جميعها(٤٤)، وبعد هذا أيدت السيدة زبيدة زوجها الرشيد على استئزار الفضل بن الربيع(٤٥) وهو من أصل عربي(٤٦). ويعد هذا موقفاً سياسياً للسيدة زبيدة وليس تدخلاً بالحكم.

(٤٠) ابن خلدون، العبر، ٢٢٣/٣.

(٤١) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ١٧١.

(٤٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق: فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، (بيروت: ١٩٧٠م)، ٧٣-٧٤؛ فاروق عمر فوزي، مباحث في الشعوبية، (بغداد: ١٩٨٩م)، ٤٧.

(٤٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٩٤/٨-٢٩٥؛ الازدي، تاريخ الموصل، ٣٠٤؛ أبو الفدا، المختصر، ١٦/٢؛ أبو حفص، زين الدين عمر ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، المطبعة الوهبية، (مصر: ١٢٨٥هـ)، ٢٠٧/١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٨٩/١٠-١٩٠.

(٤٤) اليعقوبي، تاريخ، ١٦٤/٣؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٩٦/٨؛ الجهشياري، الوزراء والكتاب، ٢٣٥؛ أبو الفرج غريغويوس بن اهرون الطيب الملكي ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، طبع: انطوان صالحاني اليسوعي، دار الرائد العربي اللبناني، (لبنان: ١٩٨٣م)، ٢٢٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٢١/٢.

(٤٥) الفضل بن الربيع بن يونس، (ت ٢٠٨هـ/٨٢٤م) وهو من أدباء الناس وعلمائهم، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥٩٠/٧، وكان له دور متميز في القضاء على البرامكة وتحريض الرشيد عليهم، وبقي مستمرا في الوزارة حتى وفاة الرشيد ومجيء الأمين، واختفى بعد هزيمة الأمين ومقتله، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣٧/٤-٣٩؛ الزركلي، الأعلام، ٣٥٣/٥.

(٤٦) أبو الحسين هلال بن المحسن الصابي، رسوم دار الخلافة، تحقيق: ميخائيل عواد، مطبعة العاني، (بغداد: ١٩٦٤م)، ٥٩؛ أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي، أعتاب الكتاب، تحقيق: صالح الأشتر، ط١، (د.م: ١٩٦١م)، ٩٩؛ محمد بن علي بن طباطبا ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، دار صادر، (بيروت: ١٩٦٠م)، ٢١١.

ويبرز موقفها السياسي – ويبدو أكثر وضوحاً – في تدخلها بمسألة ولاية العهد، فقد كان لها دور كبير في جعل ولدها الأمين ولياً للعهد، فأرادت الاستئثار بالخلافة لابنها.

وقد استطاعت السيدة زبيدة أن تكسب تأييد بني هاشم من أجل ولاية العهد لابنها(١)، واستجاب الرشيد لتأثير زبيدة وتأييد بني هاشم وقال "لولا أم جعفر وميل بني هاشم إليه لقدمت عبدالله عليه"(٢).

وهناك روايات تاريخية مفادها أن الرشيد بذكائه وفطنته أراد ان يثبت للسيدة زبيدة كفاءة المأمون وأحقيته بولاية العهد من خلال إجراء اختبار لهما منها أنه دعا أحد الخدم وطلب منه أخذ رأيهما بولاية العهد على الخلوة، فقام الخادم باجراء الاختبار فوجّه سؤالاً إلى الأمين يقول له: ما تفعل إذا أفضت الخلافة إليك؟ فقال للخادم أقطعك وأعطيك، وأما المأمون لم يتحمل هذا السؤالَ وهَمَّ بضرب الخادم بدواة كانت بيده وقال: أتسألني عما أفعل بك بموت أمير المؤمنين؟ إني لأرجو أن نكون جميعاً فداءً له! فسأل الرشيد السيدة زبيدة كيف ترين؟ ما قدم أبنك إلا متابعة لرأيك(٣). وهناك رواية أخرى أنه بعد معاتبة السيدة زبيدة للرشيد قال لها ويحك ان ابنك لأحب الي إلاّ أنها الخلافة لا تصلح إلاّ لمن كان لها أهلاً وبها مستحقا ونحن مسؤولون عن هذا الخلق ومأخوذون بهذا الأنام، فما أغناها أن نلقى الله بوزرهم وننقلب إليه بإثمهم فاقعدي حتى اعرض عليك ما بين ابني وابنك، ثم دعا المأمون أولاً، فلما وصل إلى باب المجلس سلم على أبيه ووقف طويلا مطأطأ الرأس حتى أذن له الرشيد بالجلوس والكلام، واستأذن أباه

---

(١) حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، مؤسسة شعبان للنشر، (بيروت: د.ت)، ٣٤٤/٢.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ٣٠٧؛ الدياربكري، تاريخ الخميس، ٣٤٤/٢؛ العصامي، سمط النجوم، ٣١٢/٣.

(٣) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ٩٦-٩٧؛ الاربلي، خلاصة الذهب، ١٨٧.

والكلام، واستأذن أباه بالاقتراب فأذن له فتقرب وقبل أطراف والده ويدي السيدة زبيدة ثم عاد إلى مكانه، فقال له الرشيد يا بني أريد أن اعهد اليك بالخلافة لأنك أهلاً لها.. فبكى المأمون وسأل العافية لوالده ثم قال يا أبتي أخي أحق مني... ثم استأذن بالخروج فأذن له الرشيد، ثم استدعى الأمين فدخل على أبيه دون استئذان متبختراً بمشيه، فوجه إليه الرشيد الكلام نفسه فأجاب على الفور! ومن أحق بذلك مني يا أمير المؤمنين؟ فصرفه الرشيد، وقال لزبيدة: كيف رأيت؟ فقالت يا أمير المؤمنين ابنك أحق بما تريد، فرد الرشيد، فإذا أقررت بالحق وأنصفت فأنا أعهد إلى ابني ثم ابنك. فالملاحظ هنا أنه بالرغم من هذه الاختبارات إلا أن الرشيد قدم الأمين على المأمون، وقد أشرنا إلى أسباب ذلك فيما سبق ومنها تأثير السيدة زبيدة، ولكن لا يمكن الجزم بصحة هذه الروايات فقد يكمن وراءها أسباب سياسية للتقليل من شأن الأمين.

وقد كان الرشيد يتسم بالنجابة والرجاحة في عبدالله المأمون ويقول: والله ان فيه حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة نفس الهادي، ولو شئت لقلت الرابعة مني، واني لاقدم محمد بن زبيدة واني لاعلم انه مطيع هواه ولكن لا استطيع غير ذلك[١].

وقد أكدت المصادر "أن الرشيد أراد للأمين ذلك لحرص أمه زبيدة على ذلك"[٢]، ولكن هذا لا يعني أن لها دوراً واضحاً في التأثير على سياسة الرشيد؛ لأن النصوص التاريخية قليلة في تأكيد هذا الدور، وإن كنا سلمنا انه كان لها دورٌ مؤثرٌ في سياسة الدولة فانطباعنا عنها من خلال ما قرأناه يتبين أنها لم تتدخل بسوء أو ضرر بما تتصف به من رجاحة العقل وإنصاف الحق.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الفكر، (بيروت: د.ت)، ١٦٥/١٠.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ٢٩٠؛ العصامي، سمط النجوم، ٣٠٠/٣؛ الطبري، تاريخ، ٤٤٨/٨.

وتحقق بذلك الغاية المنشودة للسيدة زبيدة وتمت الولاية لابنها الأمين سنة (١٧٥هـ/٣٩١م)(١) وقام الرشيد بتوزيع العطايا على الناس بهذه المناسبة(٢).

أراد الرشيد تلافي الصدام الذي كان من الممكن حدوثه على ولاية العهد وذلك بجعله ولاية العهد لأولاده الثلاثة محمد الأمين، وعبدالله المأمون، والقاسم المؤتمن فقسم الدولة بينهم، فجعل العراق والمغرب للأمين وهو الخليفة بعده، وجعل خراسان وبلاد ما وراء النهر والمشرق للمأمون على أن يتولى الخلافة بعد أخيه، وجعل الجزيرة والثغور والعواصم المتاخمة إلى الروم للمؤتمن، فكتب بذلك كتاباً وعلقه على الكعبة الشريفة، وأشهد عليه أكابر أهل الإسلام والكتاب والأمراء والقضاة والقواد، وأخذ عهداً من الأمين والمأمون بأن لا يتدخل أحدهما بشؤون إمارة الآخر، وأوصاهم بأن لا يتدخلا في إدارة أخيهما المؤتمن(٣). وكان هذا الأمر قد حصل عندما حج الرشيد عام (١٨٦هـ/٣٠٣م) وكان بصحبته ولديه الأمين والمأمون(٤)، وبعد الانتهاء من مناسك الحج عمل على توثيق العهد على أولاده بأن يكتب كل منهما تعهداً خطياً يتعهد فيه باحترام حقوق أخيه وتم تعليق الكتابين في الكعبة(٥). ويعد هذا نوعاً من الضمان للتوافق بينهما، واختياره لمكة لحرمتها وقدسيتها لدى المسلمين.

---

(١) اليعقوبي، تاريخ، ١٥٢/٣؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٤٠/٨؛ الازدي، تاريخ الموصل، ٢٧٤؛ مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٢٩٢/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢٨٨/٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٦٥/١٠؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ٢٩٠؛ العصامي، سمط النجوم، ٣٠٠/٣.

(٢) ينظر: اليعقوبي، تاريخ، ١٥٢/٣.

(٣) محمد بن علي بن محمد بن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي، (لايدن: ١٩٧٣)، ٧٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٨٧/١٠؛ عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، (القاهرة: ١٩٥٩م)، ٣٠٠/٣؛ الطبري، تاريخ، ٢٧٧/٨-٢٧٨؛ الماوردي، الاحكام السلطانية، ١٥٠.

(٤) اليعقوبي، تاريخ، ٤١٥/٢؛ ابن الجوزي، المنتظم، ١١٠/٩.

(٥) الطبري، تاريخ، ٢٧٧/٨-٢٧٨؛ ابن الجوزي، المنتظم، ١١٢/٩.

وكان من المؤكد أن تميل السيدة زبيدة إلى إبنها لحبها الشديد له وتحرص على توليه المناصب ولم تقتنع بالتقسيمات التي وضعها الرشيد إذ قالت له معاتبةً "ما أنصفت ابنك محمداً حين وليته العراق وأعريته من العدو والقواد وصيرت ذلك إلى عبدالله دونه وجعلت له الأموال والسلاح والقواد " فأجابها الرشيد "وما أنت وتميز الأعمال واختبار الرجال، إني وليت ابنك السلم وعبدالله الحرب، وصاحب الحرب احوج إلى الرجال من صاحب السلم ومع هذا انا أتخوف ابنك على عبدالله ولا أتخوف عبدالله على ابنك ان بويع"(١) يتضح من النص ان الرشيد قد أحسّ بنوع من تدخل السيدة زبيدة في شؤون الحكم وأراد أن يشعرها بأنها لم تكن منصفة في ذلك، ومع هذا فإن الرشيد قد فضلّ الأمين وجعله على المناطق الأكثر أمنا وسلاماً، وأراد ان يُطمئن زبيدة بان اختياره يتفق مع رغباتها وحبها لابنها ويتضح كذلك أن الأمين ربما لم يكن بالشجاعة التي تمكنه من السيطرة على الأماكن الأكثر خطراً. كما يتضح لنا بأنه لم يكن للسيدة زبيدة دور سياسي أو تأثير في إدارة الدولة بدليل قول الرشيد (وما أنت وتميز الأعمال واختبار الرجال).

وقد تولى الأمين الخلافة بعد وفاة والده في جمادى الآخر سنة (١٩٣هـ/٨٠٨م)(٢)، ووصله كتاب الخلافة وسيف أبيه وكسوته الخاصة. فانتقل الأمين من قصر الخلد إلى قصر الخلافة وأقام الصلاة بالناس ووجّه خطبة إلى

---

(١) أبو محمد أحمد الكوفي ابن أعثم، كتاب الفتوح، دار الندوة، ط١، (بيروت: د.ت)، ٢٦٣/٨؛ المسعودي، مروج الذهب، ٣٦٣/٣.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، ١٧٥/٣؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣٦٥/٨؛ الأزدي، تاريخ الموصل، ٣١٦-٣١٧؛ ظهير الدين علي بن محمد البغدادي ابن الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، (بغداد: ١٩٧٠م)، ١٣٠.

الوزراء الجند وعزاهم بوفاة والده ودعاهم إلى عمل الخير، وأخذوا له البيعة من الجند والأمراء وأشراف بني هاشم، ووزع الأعطيات على الجند(١).

وكانت السيدة زبيدة قد علمت بوفاة الرشيد وهي بالرقة(٢) فأقبلت إلى العراق حتى وصلت الأنبار ومعها خزائن زوجها، فاستقبلها ابنها الأمين بحفاوة وباحتفال بهيج بحضور الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة ودخل موكبها إلى بغداد واسكنها ابنها دار الخلافة واستقرت به حتى وفاته(٣).

ثم تبدأ الأحداث السياسية والمشاكل للتدخل بشؤون ابنها الأمين فعندما دخل الحسين ابن علي بن عيسى بن هامان إلى بغداد سنة (١٩٦هـ/٨١١م) أقام بها، وطلب الأمين فامتنع، مما جعله يحث الناس على خلع الأمين وأمر أتباعه بمقاتلته مما أدى إلى حدوث فتنة أدت إلى القتال بين الطرفين، فانهزم جيش الأمين، وتمت المبايعة للمأمون(٤). فأُخرج الأمين من قصر الخلد وحبس مع أمه زبيدة بقصر أبي جعفر المنصور إذ قام بحبسه العباس بن عيسى بن موسى(٥).

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٣٦٥/٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٥٩/٥؛ ابن خلدون، العبر، ٢٨٩/٣.

(٢) الرقة: إحدى المدن المشهورة على الجانب الشرقي من الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام، وتعد من بلاد الجزيرة لانها من جانب الفرات الشرقي واستولى عليها المسلمون أيام والي الكوفة سعد بن ابي وقاص سنة ١٧هـ، ينظر: شهاب الدين أبو عبدالله بن عبدالله البغدادي ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، (بيروت: ١٩٥٦م)، ٥٨/٣-٥٩. وكل مدينة إلى جانب وادٍ ينبسط إليه الماء عند المد رقة وبه سميت المدينة وعليها سوران، فتحها عياض بن غنم سنة ١٨هـ. محمد عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق: احسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، (بيروت: ١٩٧٥)، ٢٧٠-٢٧١.

(٣) الازدي، تاريخ الموصل، ٣١٨؛ الاربلي، خلاصة الذهب، ١٧٤؛ ابن الوردي، تاريخ، ٢١٠/١؛ أبو الفدا، المختصر، ١٩/٢.

(٤) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ٢١٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٣٦/١٠.

(٥) ابن خلدون، العبر، ٢٩٦/٣.

ونتيجة لذلك أصبح هناك طرفان للقتال، طرف يساند الأمين والآخر ضده، فاقتتل الطرفان قتالاً شديداً، فكانت الغلبة لأتباع الأمين، واستطاعوا أسر الحسين وجيء به أسيراً إلى الأمين فعاتبه، فاعتذر إليه فعفا عنه ووجهّه لمحاربة المأمون، إلا أنه خالف ذلك وهرب، فأرسل الأمين الجند لرده فأدركوه وقتلوه وحملوا رأسه إليه(١).

وتوجه طاهر بن الحسين إلى بغداد، فأحاط بها وبقصر زبيدة، فأخذ الأمين أمه زبيدة وأولاده إلى مدينة المنصور وتحصن بها، فأشار إليه بعض أصحابه بالتوجه إلى الجزيرة أو الشام لكنه رفض، فتفرق عنه أتباعه وضيق عليه طاهر وحاصره(٢) وتأثرت السيدة زبيدة وتألمت كثيراً لما حدث وجزعت ودخلت على ابنها باكية هلعة، فهدأ من خوفها وهلعها بقوله لها "مه، إنه ليس بجزع النساء وهلعن عقدت التيجان، والخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع وراءك.. وراءك.." (٣).

---

(١) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ٢١٥؛ ابن كثير البداية والنهاية، ٢٣٦/١٠-٢٣٧؛ ابن خلدون، العبر، ٢٩٦/٣-٢٩٧.

(٢) الطبري، تاريخ، ٤٧٤/٨؛ ابن القيم ابن أعثم، الفتوح، ٣٠١/٨-٣٠٢؛ المقدسي، البدء والتاريخ، ١١٠/٦.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ٤٠٤/٣.

وبعد أحداث يطول ذكرها قتل الأمين وأرسل رأسه إلى المأمون وذلك سنة (١٩٨هـ/٨١٣م) [١]، وعندما وصل زبيدة خبر مقتل ابنها أمرت بثيابها فسودت وارتدت مسحاً[٢] من شعر[٣].

هناك سؤال يطرح نفسه وهو أن امرأة راجحة العقل حكيمة مثل زبيدة ألم تستطع التدخل في الخلاف بين الأمين والمأمون للحد من النهاية التي آل إليها خلافهما وما نتج عنه من قتل الأمين، ألم تستطع ارشادهما إلى الحق وأن تنهي الصدام العسكري بينهما وتحوله إلى اتفاق يرضيهما معاً؟! يبقى هذا الطرح مقيداً بظروف قد نجهلها ولا علم لنا بها؛ لأن الروايات التاريخية لم تسعفنا بذلك وهذا ما يظهر أمام كل بحث تاريخي وهو كيف لنا ان نصل إلى المعلومة التاريخية لنتمكن من بناء الحقائق عليها؟. ولكن الأمر كان أكبر بكثير من رجاحة العقل والحكمة وله أبعاد سياسية خطيرة، وذلك لتدخل العناصر المناوئة للدولة العباسية والتي عملت على تأجيج الفتنة بين الأخوين.

جاء الخليفة المأمون إلى السيدة زبيدة لتعزيتها على مقتل ابنها، وكانت في قصر أبي جعفر المنصور، فتقدم إليها معتذراً ومعزياً لها لمواساتها والتخفيف من حزنها فقال لها "إن ذهب أحد بنيك، فقد بقي الابن الآخر، وأومأ إلى نفسه فقالت: يا أمير المؤمنين، كيف لا أبكي على ابن جعل لي ابناً مثلك ثم بكت وأبكت

---

(١) للتفاصيل ينظر: ابو حاتم محمد بن أحمد التميمي السبتي ابن حيان، الثقات، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، (الهند: ١٩٧٥)، ٣٢٨/٢؛ اليعقوبي، تاريخ، ١٨٢/٣-١٨٣؛ مؤلف مجهول، العيون والحدائق في اخبار الحقائق، مكتبة المثنى، (بغداد: د.ت)، ٣٣٨/٣-٣٣٩؛ محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت: ١٩٧٢)، ٤٧/٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٤٠/١٠-٢٤١؛ العصامي، سمط النجوم، ٣٠٥/٣.

(٢) المسح: الكساء من الشعر، ابن منظور، لسان العرب، ١٠١/١٣.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ٤٢٤/٣.

المأمون"[١] وفي رواية أخرى ان المأمون تقدم إلى زبيدة يعتذر إليها من مقتل أخيه بقوله "لست صاحبه ولا قاتله" فقالت له "يا أمير المؤمنين أن لكما يوما تجتمعان فيه وأرجو أن يغفر الله لكما إن شاء الله"[٢].

وكان المأمون قد عمل على توطيد الأمور وتحقيق الاستقرار السياسي عند دخوله بغداد سنة (٢٠٤هـ/٨١٩م) [٣].

ومن حسن إدارة السيدة زبيدة للأمور وحنكتها وبجعل العلاقة بينها وبين المأمون على أحسن ما يكون، كتمت حزنها على ابنها لشخصيتها القوية فبادرت لتقديم التهنئة للمأمون، فدخلت عليه وقالت له "الحمد لله ان أهنئك بخلافة قد هنأت نفسي بها قبل ان أراك، ولئن كنت قد فقدت ابنا خليفة لقد عوضت ابنا خليفة، وما خسر من اعتاض مثلك ولا ثكلت أم ملأت يدها منك وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ وأمتاعاً بما وهب"[٤].

---

(١) ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ٩٩؛ ابن الجوزي، أخبار الظراف والمتماجنين، تقديم وتعليق، محمد بحر العلوم، مطبعة العربي الحديثة، ط٢، (النجف: ١٩٦٧)، ١٤٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢١٤/٢.

(٢) شهاب الدين أحمد بن محمد الأندلسي ابن عبد ربه، العقد الفريد، تقديم: خليل شرف الدين، دار مكتبة الهلال، ط١، (بيروت: ١٩٨٦)، ٣١/٣.

(٣) أبو عمرو البصري خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار، منشورات وزارة الثقافة، (دمشق: ١٩٦٨م)، ٧٥٨/٢؛ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، التنبيه والأشراف، اعتناء وتصحيح ومراجعة: عبدالله إسماعيل الصاوي، (القاهرة: ١٩٣٨م)، ٣٠٢-٣٠٣؛ ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ٩٩.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤٣٣/١٤-٤٣٤؛ الاربلي، خلاصة الذهب، ٢١٩؛ شهاب الدين احمد ابن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، (القاهرة: د.ت)، ١٣٧؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٤١/١٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٧١/١٠.

ومما يؤكد عبقرية السيدة زبيدة وحرصها على تقوية الأواصر والابتعاد عن المنازعات ويجعل الأمور هادئة فقد شاركت في حضور زواج المأمون عندما تزوج بوران بنت وزيره الحسن بن سهل(١)، وقدمت السيدة زبيدة إلى بوران هدية العرس فألبستها البدنة(٢) التي كانت مطرزة بالياقوت الأحمر واللؤلؤ والجواهر(٣). وقد تكون هي البدنة نفسها التي أُلقيت عليها ليلة زفافها، وكأنها عادة متبعة في مراسيم الزواج لدى زوجات الخلفاء العباسيين.

أعمال السيدة زبيدة العمرانية والخيرية وآثارها الحضارية:

يتطلب القيام بهذه الاعمال ثروة مالية كبيرة نسبياً، وكذلك لرصد اوقاف ثابتة عليها لضمان ديمومتها، ويرتبط ذلك بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية، وعلى قدر تعلق الامر بهذا الجانب المهم جداً، نجد أن السيدة زبيدة تتساوى بل تفوق كثيراً عن الرجال وهذا في الحقيقة أمر ملفت للنظر.

تشير المصادر التاريخية إلى أن السيدة زبيدة قامت بأداء فريضة الحج مرات عديدة، وكان لها في هذه الفرائض جميعها أعمال بر وخير.

ففي سنة (١٧٥هـ/٧٩٢م) ذهبت للحج، وعندما رأت ما يعانيه أهل مكة من شحة مياه الشرب، أمرت بحفر عدة آبار على نفقتها الخاصة(٤). ثم قصدت

(١) كان الزواج سنة (٢١٠هـ/٨٢٥م) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٦٠٦/٨؛ مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٣٦٦/٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٤٧٨/٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٦٥/١٠.

(٢) أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، تجارب الأمم، مكتبة المثنى، (بغداد: د.ت)، ٤٥٧/٦؛ مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ٣٦٦/٣؛ ابن الأثير، الكامل، ٤٧٨/٥.

(٣) صبيحة رشيد رشدي، الملابس العربية وتطورها في العصور الإسلامية، ط١، (بغداد: ١٩٨٠م)، ٢٦.

(٤) سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، ط١، (بيروت: ١٩٦١م)، ٢٢٣.

الحج عام (١٧٦هـ/٧٩٣م) فأمرت أيضاً ببناء المصانع والبرك في طريق الحج الذي سلكته[١].

وفي عام (١٨٠هـ/٧٩٧م) حجت زبيدة مشياً مع الرشيد[٢]، ثم حجت سنة (١٨٦هـ/٨٠٣م) فاطلعت على ما يعانيه أهل مكة والحجاج من مشاق الحصول على ماء الشرب، فدعت خازن أموالها وأمرته بأن يدعو المهندسين والعمال من أنحاء البلاد للعمل، وأخبرها وكيلها المشرف على هذا العمل بأنه سيكلفها نفقات كثيرة فردت عليه بقولها "اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً"[٣].

وفي شهر رمضان (١٩٣هـ/٨٠٨م) أي بعد وفاة زوجها الرشيد، حجت السيدة زبيدة وحملت معها هدية ابنها الأمين لمكة المكرمة التي بلغت تقريباً عشرين ألف مثقال ذهب والذي استخدم صفائح ومسامير لباب الكعبة المشرفة، واطلعت أثناء وجودها في مكة على تشييد القلاع والمستودعات والقنوات المتعلقة بالعمل[٤].

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٢٥٤/٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٨٤/٢؛ محمد بن محمد ابن عمر القرشي الهاشمي، ابن فهد المكي، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، ط١، (القاهرة: ١٩٨٣م)، ٢٢٧/٢.

(٢) أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، (مصر: ١٩٦٣م)، ١٩٢/٢-١٩٣.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٧٠/٢؛ اليافعي، مرآة الجنان، ٦٣/٢؛ عبد القادر محمد بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم الانصاري الجزيري، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، المطبعة السلفية، (القاهرة: ١٩٦٤م)، ٧٠٣.

(٤) اليعقوبي، تاريخ، ١٧٦/٣.

وفي سنة (١٩٤هـ/٨٠٩م) أمرت السيدة زبيدة بعمل بركتها بمكة فأجرت لها عيناً من الحرم ولكنَّ ماءها كان قليلاً لا يكفي الناس مع أنها عملت ما بوسعها من جهد لإنجازها[١]، ولكن هذا لا يثني من عزيمة السيدة زبيدة وإصرارها على توفير المياه الكافية لأهل مكة وحجاجها، فأمرت مجموعة من المهندسين أن يجروا لها عيوناً من الحل[٢]. وذلك أن ماء الحل كان لا يدخل الحرم؛ لأنه يمر على عقاب وجبال[٣]، وزودتهم بأموال كثيرة لإنجازه وأمرت بمعاينة عينها التي في الحرم فوجدوا فيها خراباً فأنشأت عيناً أخرى إلى جانبها،... فإذا بالماء لا يتدفق في ذلك الجبل، فأمرت بمضاعفة الجهود، فضرب فيه مقابل أموال طائلة حتى تدفق الماء وجرى بمعونة الله عزوجل[٤]، وأتمت العمل بإجراء قنوات أخرى... وأنفقت عليها من الذهب ما قدره ألف ألف مثقال وسبعمائة ألف مثقال[٥]، ولأجل الاستفادة من مياه الأمطار عملت على حفر عدد من البرك لخزنها، ثم أجرت لها عيوناً من حنين[٦]، واشترت حائط حنين، فصرفت عينة إلى بركة وجعلت الحائط سداً يجتمع فيه السيل، وهذا العمل لم يقم

(١) أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح، مطابع مايتوكرومو، (مدريد: ١٣٨٥م)، ٢٣١/٢؛ أبو عبدالله محمد بن اسحق الفاكهي، تاريخ مكة، ضمن كتاب أخبار مكة المشرفة، مكتبة خياط، (بيروت: د.ت)، ٣٣؛ ابن فهد المكي، إتحاف الورى، ٢٤٨/٢.

(٢) الأزرقي، أخبار مكة، ٢٣١/٢؛ الفاسي، شفاء الغرام، ٣٤٦/١؛ ابن فهد المكي، إتحاف الورى، ٢٤٩/٢.

(٣) الأزرقي، أخبار مكة، ٢٣١/٢.

(٤) الازرقي، أخبار مكة، ٢٣١/٢؛ الفاكهي، تاريخ مكة، ٣٣؛ الفاسي، شفاء الغرام، ٣٤٦/١-٣٤٧؛ ابن فهد المكي، إتحاف الورى، ٢٤٩/٢.

(٥) الفاكهي، تاريخ مكة، ٥٢؛ قطب الدين محمد بن محمد الحنفي النهرواني، تاريخ القطبي المسمى كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، (لايبزك: ١٨٥٧م)، ٣٣٥.

(٦) حُنين: وادٍ قريب من مكة بينه وبين مكة ثلاث أميال قبل الطائف، ينظر: أبو عبيدالله بن عبد العزيز الأندلسي البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة: ١٩٤٩)، ٤٧١/٢-٤٧٢؛ الحميري، الروض المعطار، ٢٠٢.

به أحد من قبلها[١]، وتملكت ضياعاً إيراداتها ثلاثون ألف دينار في السنة وأوقفتها لديمومة هذا المشروع[٢]، ولا زالت هذه القناة يشرب منها أهل مكة وحجاجها حتى وقتنا الحالي وتعرف باسم قناة زبيدة[٣].

ولم تكتفِ السيدة زبيدة بهذا العمل، بل أمرت العمال بإنشاء قناة أخرى من نعمان[٤] التي تسمى عين نعمان.. لتصب في موضع يقال له (الأوحر) من وادي نعمان[٥] وجرى ماء عين نعمان إلى أرض عرفة... وإلى بركها فتمتلىء ماء يشرب منه الحجاج في يوم عرفة[٦] ثم يصل الماء إلى مزدلفة ومن هناك إلى منى حتى يصب في بئر واسعة خلف منى تسمى بئر زبيدة ويتوقف العمل

(١) الأزرقي، أخبار مكة، ٢٣١/٢؛ الفاكهي، تاريخ مكة، ٣٤؛ الفاسي، شفاء الغرام، ٣٤٧/١؛ ابن فهد المكي، إتحاف الورى، ٢٤٩/٢؛ قطب الدين محمد بن محمد الحنفي النهرواني، تاريخ القطبي المسمى كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، مطبعة المدرسة، (لايزبك: ١٨٥٧م)، ٣٣٥.

(٢) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق: وليم ملورد، دار الكتاب الجديد، ط١، (بيروت: ١٩٦٢م)، ٢٦.

(٣) شاكر مصطفى، دولة بني العباس، وكالة المطبوعات، ط١، (الكويت: ١٩٧٣م)، ٣٢/٢؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، (القاهرة: ١٩٦٤)، ٤٣١/٢.

(٤) نعمان: واد لهذيل بين مكة والطائف وكان الرسول (ﷺ) قد غزاه، محمود بن عمر الزمخشري، الأمكنة والمياه والجبال، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مطبعة السعدون، (بغداد: ١٩٦٨م)، ٢١١؛ الحموي، معجم البلدان، ٢٩٣/٥.

(٥) الأزرقي، أخبار مكة، ٣٢٧/٢؛ النهرواني، تاريخ القطبي، ٣٣٦.

(٦) النهرواني، تاريخ القطبي، ٣٣٦.

هنا(٩٤) وذلك لصلابة الحجر وصعوبة قطعة وطول المسافة(٩٥) وهناك عين أخرى تدعى بازان تنسب أيضاً إلى السيدة زبيدة(٩٦).

وللدلالة على أن السيدة زبيدة أنفقت هذه الأموال رضاءً لله تعالى وعن طيب خاطر وميلها لأعمال البر ولم تبال لكثرة ما أنفقت هو ان وكيلها حضر إليها في بعض الأيام وقال لها: قد صُرف إلى الآن أربعمائة ألف درهم فقالت له: ما أردت بهذا القول إلا أن تعنفني وتندمني وتمنعي من الخير اصرف وأتمم العمل ولو كان أضعاف ذلك(٩٧) وعندما عرض عليها وكيلها تقريراً عن مقدار ما أنفقوه من أموال لإتمام المشروع، فإنها بعد أن استلمت سجل حساباتهم، أجابتهم أنها تريد الثواب وتسعى بذلك للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، ثم أخذت السجلات منهم ورمت بها حالاً في النهر وقالت: "لقد تركنا الحساب ليوم الحساب"(٩٨) وقد أكرمت السيدة زبيدة العاملين على المشروع لما أنجزوه من عمل فانصرفوا فرحين وشاكرين ومقدرين لها(٩٩).

(٩٤) الازرقي، أخبار مكة، ٣٢٧/٢؛ النهرواني، تاريخ القطبي، ٣٣٦.
(٩٥) ينظر: النهرواني، تاريخ القطبي، ٣٤٥.
(٩٦) أبو الطيب تقي الدين محمد بن احمد بن علي المكي المالكي الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مطبعة السنة المحمدية، (القاهرة: ١٩٥٩م)، ١٢٦/١؛ النهرواني، تاريخ القطبي، ١٢٩.
(٩٧) الفاسي، العقد الثمين، ٢٣٧/٨.
(٩٨) الفاسي، العقد الثمين، ٢٣٧/٨؛ النهرواني، تاريخ القطبي، ٣٣٥.
(٩٩) النهرواني، تاريخ القطبي، ٣٣٥.

وقد امتدحها الشعراء لما قامت به من أعمال خيرية ولاسيما إسالة المياه للحجاج ومنها:-

سهَّلَهُ الله بأُمِّ جعفرِ فصار موروداً حميدَ المصدرِ

رمي بعذبِ الطعمِ مثل السُّكَّرِ وراجلٍ أشعث شعر أغبر

جادت له بفضةٍ وجوهر ساقية الحجاج ذات المفخر(١٠٠)

وفي أبيات أخرى:

يدعو لأمِّ جعفرٍ في الموطن إذْ فَرَجَتْ عَنِ الفقيرِ والغَنِيِّ

فالماء في كُلِّ طريقٍ أخْشَنَ فليسَ عَنْهُ راحلٌ بَمنثني

جادَتْ بهِ للمؤمنِ المُهيمنِ واللهُ قَدْ يُجزي بَفَضْلِ المُحْسِنِ(١٠١)

وهناك كتابات منقوشة على قوس باب مستودع المياه مكتوب فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له والصلاة على محمد عبده ورسوله بركة من الله مما أمرت به أمُّ جعفر بنتُ أبي الفضل جعفر بن أمير

(١٠٠) أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشير الحربي، المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، (الرياض: ١٩٦٩م)، ٥٥١.

(١٠١) المصدر نفسه، ٥٥٤.

المؤمنين بإنشاء هذه المستودعات لكي تزود الماء لبيت الله وللناس في حرمه راجية بذلك ثواباً من الله ومتقربة إليه كُتب بخط ياسر خادمها ومواليها في سنة مئة وأربع وتسعين للهجرة" ومكتوب تحت الكتابة اسم أبي إسحاق إسماعيل بن إسحاق القاضي الذي أشرف على العمل(١٠٢).

وقد أشار الرحالة ابن جبير إلى مشاريع السيدة زبيدة وتأكيد وجودها بقوله: "أن هذه الخزانات والبرك والآبار والمحطات على الطريق من بغداد إلى مكة ما هي إلا آثار لزبيدة بنت جعفر زوج هارون الرشيد وابنة عمه، انتدبت لذلك مدة حياتها، فأبقت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعمّ وفد الله تعالى كلّ سنة من لدن وفاتها إلى الآن. ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سُلكت هذه الطريق، والله كفيل بمجازاتها والرضا عنها"(١٠٣).

أعمال أُخر قامت بها السيدة زبيدة:

فضلاً عن مشاريع المياه التي قامت السيدة زبيدة بانجازها، هناك أعمال أُخر قامت بها في مناطق عدة منها بناء المساجد للمصلين، فاشترت الدار التي فيها مسجد الرسول محمد (ﷺ) وبنتها مسجداً(١٠٤) وينسب إليها أيضاً بناء مسجدٍ

---

(١٠٢) الفاكهي، تاريخ مكة، ٣٥.

(١٠٣) أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي ابن جبير، الرحلة، (بيروت: ١٩٦٤)، ١٨٥.

(١٠٤) أبو القاسم عبد الرحمن بن أحمد بن أبي الحسن الخشعمي السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٧٨م)، ١/١٨٤؛ الفاسي، العقد الثمين، ١/٢٢٠؛ شفاء الغرام، ١/٢٦٩؛ جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين بن أبي بكر بن علي المخزومي القرشي ابن ظهيرة، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، مكتبة الثقافة، (مكة المكرمة: ١٩٧٢م)، ٣٢٦.

آخر يقع في علو مكة[١٠٥] وكذلك بنت مسجداً في قطيعتها أطلق عليه مسجد القطيعة[١٠٦].

وكان للسيدة زبيدة اهتمامٌ كبيرٌ بمناطق الثغور في بلاد الشام، إذ ينسب إليها بناء أماكن مخصصة للمسافرين، وأوقفت في سبيل ذلك ضياعاً للصرف على الفقراء والمساكين قدرت بـ(ألف دينار) [١٠٧]، كما عملت على بناء دار للضيافة إذ لم يكن هناك دار غيرها سميت (بدار ضيافة زبيدة) [١٠٨]. يبدو من خلال تسميتها بدار ضيافة زبيدة أنها كانت دار ضيافة ومأوى للمسافرين للراحة والمأكل والمشرب.

ومن الأعمال الأخرى في المناطق المتعددة أنها أمرت بترميم ضيعة (ورثان) وبناء سورها في الجزء الشمالي لاذربيجان والمنسوب بناؤها للخليفة الأموي مروان بن محمد بن الحكم (١٢٧-١٣٢هـ/٧٤٦-٧٥١م) [١٠٩].

---

(١٠٥) الأزرقي، أخبار مكة، ٢/٢٠٣؛ ابن ظهيرة، الجامع اللطيف، ٣٣٨؛ الحربي، المناسك، ٥٥١.

(١٠٦) ينظر: ابن الجوزي، مناقب بغداد، نشر: محمد بهجت الأثري، مطبعة دار السلام، (بغداد: ١٩٢٣م)، ٢١؛ ابن الجوزي المنتظم، ط١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، (حيدرآباد: الدكن: ١٣٥٨هـ)، ٧/١٤٩؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١/١١٠.

(١٠٧) اليعقوبي، مشاكلة الناس، ٢٦.

(١٠٨) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الكرخي الأصطخري، المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبدالعال الحسيني، مراجعة: محمد شفيق غربال، مطابع دار القلم، (القاهرة: ١٩٦١)، ٤٨؛ أبو القاسم محمد بن علي النصيبي، ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، (بيروت: د.ت)، ١٦٩؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، (باريس: ١٨٤٠)، ٢٥٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/١٢٢.

(١٠٩) أبو الفرج، ابن قدامة بن زياد الكاتب قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق: محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، (بغداد: ١٩٨١)، ٣٨٠؛ أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني، ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، (ليدن: ١٣٠٢)، ٢٨٤.

ونظراً لأهمية الحصون والرُبُط التي تعد من الأماكن المهمة التي شهدتها الدولة الإسلامية، لاتبارطها بعمليات الجهاد، فقد قامت السيدة زبيدة ببناء حصن في منطقة بذخشان(١١٠) وصفته المصادر بالعجيب(١١١) وأنشأت فيه رباطاً أيضاً(١١٢).

وانتقلت إليها ضيعة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٤م) فاهتمت بها وزادت في عمارتها(١١٣).

دورها في الحياة الأدبية:

مثلما كان للسيدة زبيدة أعمال خيرية وتأثير في الحياة الاجتماعية والسياسية فقد كان لها دور في الحياة الأدبية فقد كانت لها مساهمات في الشعر والأدب والكتابة وغيرها إذ إنها بلغت مبلغاً عظيماً من الثقافة فكانت شاعرة مثقفة.

فمن ناحية الشعر، فإنها كانت تنظمه، وتكرم الشعراء وترعاهم وكانت تختار من الشعراء ما يعجبها شعرهم، وفي رواية أن زبيدة كانت مع زوجها الرشيد بالرقة التي يفضل الرشيد الإقامة بها لطيب هوائها ورقة أنسامها فطال المقام بها، واشتاقت السيدة زبيدة إلى بغداد، فجمعت الشعراء وطلبت منهم

---

(١١٠) بذخشان:... بلدة في أعلى طخارستان، متاخمة لبلاد الترك وفيها معدن البلخش المقاوم للياقوت، وفيها أيضا معدن اللازورد، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣٦٠/١.

(١١١) ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة المثنى، (بغداد: د.ت)، ١٣٠/١؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣٦٠/١؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ٤٧٥.

(١١٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣٦٠/١.

(١١٣) أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، مراجعة وتعليق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٩٧٨م)، ١٨٤؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤١٩/٥.

وصف بغداد بأوصاف تجعل الرشيد يشتاق للعودة إليها، فتقدَّم الشعراء يــذكرون بغداد وفضلها، وكان من بينهم الشاعر منصور النمري فقال:

ماذا بِبغدادَ مِنْ طِيْــبِ أفــانينِ　　　　وَمِنْ عَجائِــبَ للــدُّنيا وللــدِّينِ

إذا الصَّبا نَفَحَتْ والليلُ مُعْتَكِــرٌ　　　　فَحَرَّشَتْ بَيْنَ أغْصانِ الرَّيــاحينِ[١١٤]

فكان هذا الشعر أكثر تأثيراً في قلب الرشيد مما جعله يسرع في العــودة إلى بغداد وبذلك استطاعت زبيدة بذكائها أن تحصل على ما تريد، ويقــال: إنهــا أهدت إلى النمري جوهرة ثمينة، ثم دست إليه من يشتريها منه بثلاث مئة ألــف درهم[١١٥].

وكان الشعراء يعرفون أن زبيدة محبة للشعر وإكرام الشعراء بــالجوائز الثمينة فكانوا يمتدحون ابنها الأمين بقصائد جميلة ومنها ما قالــه الــشاعر ســلم الخاسر:

قُلْ لِلمَنَازِلِ بِــالْكَثِيفِ الأعْقَــرِ　　　　أسقيْتَ غاديةَ السَّحابِ المُمْطِرِ

قدْ بايع الثَّقلان مَهْديّ الهُــدَى　　　　لِمُحَمّد بْنِ زُبيدةَ ابنَــة جَعْفَــرِ

ولَّيتَهُ عَهْــدَ الأنــامَ وأمْــرَهُمْ　　　　فَدَفَعْتَ بالمَعْروف رَأْس المُنْكَرِ

(١١٤) عبدالله بن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فــراج، دار المعــارف، (مصر: ١٩٥٦)، ٢٤٦؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١/٥١-٥٢.

(١١٥) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ٢٤٦؛ ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١/٥٢.

قَد وَفَّقَ اللهُ الخَلِيفَــةَ إذْ بَنَــى بَيْتَ الخِلافَة لِلْهِجانَ الأزْهَــرِ

فَهُو الخَلِيفَةُ عَنْ أبِيــهِ وَجَــدِّهِ شَهْداً عَلَيه بِمَنْظَــرٍ وَبِمُخْبِــرِ

فأكرمته السيدة زبيدة بجواهر باعها بعشرين ألف دينار(١١٦) وهناك العديد من الشعراء ممن أكرمتهم السيدة زبيدة لما قالوه من الشعر فأعجبها(١١٧).

ولما قُتل ابنها الأمين، جاء إليها أحدُ خدمها وقال لها: ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد، فقالت ويلك ما أصنع، فقال: تخرجين فتطلبين بثــأره كمــا خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، فقالت: اخسأ لا أُمَّ لك، ما للنساء وطلب الثــأر ومنازلة الأبطال"(١١٨) وكتبت إلى المأمون هذه الأبيات:

لخير امام قام من خير عنصر وأفضل راق فــوق اعــواد منبــر

ووارث علم الأولين وفخــرهم وللملك المــأمون مــن أم جعفــر

(١١٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٩٥/٢؛ الأربلي، خلاصة الذهب، ١٤٤؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ٢٩١؛ العصامي، سمط النجوم، ٢٧٩/٣.

(١١٧) للمزيد ينظر: علي بن الحسين بن محمد القرشي أبو الفرج الاصبهاني، الاغاني، تــح: ابراهيم الابياري، دار الــشعب، (القــاهرة: ١٩٧٢)، ٧٩٩٧/٢٣، ٧٩٩٩؛ ٩١٢٥/٢٦-٩١٢٦؛ إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان، أبــو العتاهيــة، ديوانــه، دار صــادر، (بيروت: ١٩٦٤)، ٢١٦.

(١١٨) المسعودي، مروج الذهب، ٤٢٣/٣-٤٢٤.

كتبت وعيني تستهل دموعهـــا اليك ابن عمي من جفوني ومحجــري

أصبت بأدنى الناس منك قرابةً ومن زال عن كبدي فقل تــصبري

أتى طاهرا لا طهر الله طاهراً وما طـــاهر فـــي فعلـــه بمطهـــر

فابرزني مكشوفة الوجه حاسراً وانهب امـــوالي واخـــرب أدوري

يعز على هارون ما قد لقيتـــه وما نالني من ناقص الخلق أعـــور

فان كان ما اسدى لأمرٍ أمرته صبرت لأمر من قدير مقـــدر(١١٩)

ولما قرأ المأمون هذه الأبيات بكى وحزن لمقتل أخيه وقـــال: "أنـــا والله المطالب بثأر أخي قتل الله قاتله"(١٢٠) فكتب إليها المأمون بظهر ورقتها قائلا لها:

---

(١١٩) المسعودي، مروج الذهب، ٤٢٣/٣-٤٢٤؛ الأربلي، خلاصة الذهب، ٢١٩-٢٢٠؛ في حين نسبت هذه الأبيات في المصادر الأخرى لخزيمة بن الحسن يرثي ابنها علـــى لـــسان زبيدة، ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٥٠٦/٨؛ ابن أعـــثم، الفتـــوح، ٣٠٩/٨-٣١٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٤٠٨/٥؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ٣٠١.

(١٢٠) الأربلي، خلاصة الذهب، ٢٢٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٤٠٨/٥.

يعز علـــيّ مـــا لاقيـــت فيـــه وانـــــت الام خيــــر الامهــــات

ولم ارض الـــذي فعلـــوا إليـــه مـــن الفعـــل المخـــالف والـــشتات

أمرت بأخذ هـــذا الأمـــر منـــه وقبض يديـــه عـــن تلـــك الهنـــات

فَـــأنَّى مِثْلُـــهُ لَـــكِ فَاعْلَمِيـــه على ما كـــانَ مَـــا بَقِيَـــتْ حَيـــاتِي

وَثَـــأري بَعْـــدَ ثَـــأر اللهِ فيـــهِ سَــــيَذْهَبُ بالجبـــابِرَةِ العُتَــــاةِ

بنى لـــك جعفـــرٌ بيتـــاً رفيعـــاً وشـــيَّده بـــأعلى المُكْرَمـــاتِ

أمير المـــؤمنين وَرَثْـــتَ حَقّـــاً وأنـــتِ أميـــرةٌ للمؤمِنَـــاتِ(١٢١)

وهذا دليل على أن المأمون لم يكن له دور في مقتل أخيه الأمين، وإنمـا هي فتن سببها العناصر المناوئة للدولة العباسية.

وللسيدة زبيدة قصيدة رثاء أخرى تصور فيها مدى حزنها وألمهـا علـى مقتل ابنها الأمين تقول فيها:-

أودى بالفك من لم يترك الناسا فامنح فؤادك عن مقتولـك اليأسـا

لمّا رأيتُ المنايا قد قَصَدْنَ لَـهُ أصبن منهُ سوادَ القلـبِ والرّاسـا

---

(١٢١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٤٠٨/٥؛ الأربلي، خلاصة الذهب، ٢٢٠.

فَبِتُّ مُتكئاً أرعى النجــومَ لـــهُ أخالَ ســنته فـــي الليــلِ قِرْطاســا
والموتُ دانٍ له والهَــمُّ قَارَنَـــهُ حتَّى سقاه التي أودى بهــا الكأســا
رزئته حين باهيتُ الرجالَ بـــه وقــد بَنَيْــتُ بِـــهِ للـــدَّهْرِ أساســا
فليس من مات مردوداً لنا أبــداً حتى يُردّ علينــا قبلــه ناســا(١٢٢)

فضلاً عن اهتمامها بالشعر والشعراء كانت لها اهتمامات بالكتابـــة، فقـــد بعثت برسالة إلى علي بن عيسى بن ماهان حينما تهيأ لحرب المأمون توصيه فيها وتقول له: يا علي إن محمداً وإن كان ابني وثمرة فؤادي فإن لعبد الله من قلبـــي نصيباً وافراً من المحبة وأنا التي ربيته وأنا أحنو عليه فإياك أن يبدأه منك مكروه وأذى(١٢٣). وقد أشاد المأمون ببلاغتها وحسن تعبيرها عندما هنأته بالخلافة بقولها "الحمد لله أن أهنئك بخلافة قد هنأت نفسي بها قبل أن أراك.."(١٢٤). فقد قال فيهـــا "ما تلد النساء مثل هذه، وماذا أبقت في هذا الكلام لبلغاء الرجال"(١٢٥).

---

(١٢٢) المسعودي، مروج الذهب، ٤٢٣/٣؛ عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، (بيروت: د.ت)، ٢/٢٠-٢١.

(١٢٣) أبو حنيفة أحمد بن داؤد الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيــق: عبــد المــنعم عـــامر، مراجعة: جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتب العربية، ط١، (القـــاهرة: ١٩٦٠)، ٣٩٦؛ ابن العمراني، الأنباء في تاريخ الخلفاء، ٨٩؛ ابن خلدون، العبر، ٢٩٢/٣.

(١٢٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤٣٣/١٤-٤٣٤؛ الأربلي، خلاصـــة الـــذهب، ٢١٩؛ النويري، نهاية الأرب، ١٣٧.

(١٢٥) أبو العتاهية، ديوانه، ٢١٦؛ ابن الجوزي، أحكام النـــساء، ١٤٨؛ الأربلـــي، خلاصـــة الذهب، ٢١٩؛ النويري، نهاية الأرب، ١٣٧/٥.

ولتمكن السيدة زبيدة من المعاني اللغوية ومقدرتها الأدبية وفصاحتها وذكائها، انه عندما كتب إليها أحد عمالها كتاباً بسبب ضياع تعود لها، أجابته على ظهر الكتاب نفسه "أردت أن تدعو لنا فدعوت علينا، فأصلح خطأك في كتابك وإلا صرفناك عن جميع أعمالك"، مما جعله يتأمل الكتاب وعرضه على الكتّاب فلم يتمكنوا من فهم ما قصدت، فاضطر إلى عرضه على أهل المعرفة فقالوا له: إنما كرهت دعاءك في مقدمة كتابك بقولك، وأدام كرامتك: لأن كرامة النساء دفنهن، فأبدله وأعاد الكتاب إليها فقبلته، ثم وقعت له على ظهر الكتاب أحسنت ولا تعد(١٢٦).

وقصد أحد الشعراء السيدة زبيدة فامتدحها بقصيدة قال فيها:

أزبيدة ابنة جعفر طوبى لزائركِ المثابِ

تعطين من رجليكِ ما تعطى الأكف من الرّغابِ

فتهيأ الشعراء والخدم ليضربوه بسبب هذا الكلام، فمنعتهم السيدة زبيدة وقالت: إنما أراد الخير فأخطأ، ومن أراد الخير فأخطأ فهو أحب إلى ممن أراد الشر فأصاب،... فيعتقد أنه إذا قال هكذا كان أبلغ في المديح، أعطوه ما أمل وعرفوه ما جهل(١٢٧) فهنا السيدة زبيدة قد فهمت قصد الشاعر وما يصبو إليه وبهذا فهي فاقت الشعراء والخدم في إدراك ما يعنيه الشاعر من تشبيه.

(١٢٦) أبو العباس احمد بن علي بن أحمد بن عبدالله القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، (القاهرة: ١٩٦٣)، ٢٩٢/٦.

(١٢٧) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، تحقيق: إبراهيم الكيلاني مطبعة الإرشاد، (دمشق: ١٩٦٦)، ٣٧/٢؛ إبراهيم بن علي الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تفصيل وشرح: زكي مبارك، مطبعة الرحمانية، (مصر: ١٩٢٥)، ٥٦/٢؛ أبو الحسن علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط١، (بيروت: ١٩٧٩)، ٣٤٨/١.

اهتمام السيدة زبيدة بمظاهر الزينة والكماليات:

كانت السيدة زبيدة أكثر اهتماماً بمظاهر الزينة واقتنائها للمجوهرات والكماليات إذ اتخذت القباب من الفضة والأبنوس والصندل وعليها كلاليب من الذهب والفضة والديباج والخز وأنواع الحرير بألوانه المتعددة من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق، حتى إن نساء عصرها أخذن يقلدنها ويتشبهن بها في أمورهن كلها[١٢٨]. كما استخدمت السيدة زبيدة التيجان التي كان قد جهزها بها زوجها الرشيد[١٢٩].

وكانت ترصع أوانيها الذهبية بالفضة والجواهر[١٣٠]، وكانت لها سبحة من الياقوت ثمنها خمسون ألف دينار[١٣١].

ولازدياد اهتمامها وحبها لأدوات الزينة، فقد اشترت قضيباً من زمرد في رأسه طائر من ياقوت أحمر، بأربعة وثمانين ألف دينار، وأهدته إلى عبدالله بن محمد الأمين[١٣٢].

يتضح مما تقدم أن للسيدة زبيدة دوراً مهماً في مجالات الحياة لاسيما الاجتماعية والادبية فكانت كغيرها من النساء الشهيرات في الإسلام عضوٌ فاعلٌ ومشاركٌ إيجابيٌ في خدمة المجتمع، أما في المجال السياسي فقد ظهر دورها وبدى أكثر وضوحاً في مسألة ولاية العهد لأبنها.

---

(١٢٨) اليعقوبي، مشاكلة الناس، ٢٧؛ المسعودي، مروج الذهب، ٣١٧/٤-٣١٨.
(١٢٩) الشابشتي، الديارات، ١٥٦.
(١٣٠) اليعقوبي، مشاكلة الناس، ٢٧.
(١٣١) البيروني، الجماهر، ١٥٦؛ أبو علي المحسن بن علي التنوخي، الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، (بيروت: ١٩٧٨م)، ٣٢٣/٢.
(١٣٢) البيروني، الجماهر، ١٦٥.

The Social and Political Role of Zubaida, Al-Rashid's Wife

Lect.Dr.Aai'da Mohammed Ubaid

Abstract

The Abbasid era is obviously considered one of the most prosperous eras in the Islamic history politically, culturally, and economically. During that era, many prominent women figures were famous. Among them was Madam Zubeidah. Zubeidah was the wife of the Abbasid Caliph, Haroon Al-Rasheed. She had a little interest in politics, especially her attempt to make she son, Al-Ameen, to assume power after his father. Also, she produced effective literary works since she took the wives of the prophet Muhammad (PBUH) as a perfect example. It was known about her to adopt honoring attitudes in different situations. The study patently shows these attitudes and other contributions of this well-known women in various aspects. The greatest achievement made by Zubeidah was providing Makka with portable water to be used by the people and pilgrims, and still we can observe, in our time, the remains of that giant project.